مقدمـــة

حظي فكر الغزالي، قديما وحديثا، باهتمام المفكرين والباحثين مسلمين كانوا أم غير مسلمين، وقد تعددت أبحاثهم واهتماماتهم بتنوع مضامين فكره، فمنها ما اتجه نحو الأخلاق والتصوف، ومنها ما اهتم بالفقه وأصوله ومنها ما اهتم بالعقيدة وعلم الكلام، وغير ذلك من الموضوعات، ونحسب هذا الثراء والتنوع أمرا طبيعيا بالنظر إلى ما امتازت به ثقافة الغزالي من موسوعية فقد خاض في كل شعب المعرفة، ولم يترك بابا منها إلا طرقه، مجددا ومبدعا باحثا عن الحقيقة، فاستحق بذلك لقب حجة الإسلام ومجدد زمانه، ومحي الدين، وما إلى ذالك من ألقاب التفخيم والتعظيم التي نخاله خليقا بها.

لكن وراء كل عظيم مشكلة، ومشكلة الغزالي هذا التضارب والازدواجية في مواقفه، فعلى خلاف المفكرين المسلمين لم يكن للغزالي موقف واحد ولا مذهب واحد في القضايا التي تناولها، الأمر الذي أدى إلى تعارض آراء المفكرين والعلماء والباحثين في تفكيره، فانقسموا بسبب ذالك بين مادح وقادح.

فالغزالي فيلسوف، وناقد للفلاسفة، ومتكلم، وناقد للمتكلمين، ومتصوف، وناقد للمتصوفة، ومتهم بالباطنية، وناقد للباطنية، وناقد للحس والعقل والإلهام، وفي الوقت ذاته يناصر كل مصدر من هذه المصادر في المعرفة، وكذلك الحال في موقفه من طرق المعرفة كالاستدلال والتأويل

والمناظرة، فهو ينقد كلا منها بقدر ما يعترف بأهميته وقيمته، فلا غرابة والحال هذه أن تتناقض الدراسات في موقفها من الغزالي، أو أن تأتي بتراء وقاصرة عن إيجاد حل لمعضلة الازدواجية والتضارب هذه، الأمر الذي يدفع الباحث بقوة إلى المساهمة في إيجاد حل لهذه المشكلة، دون خوف من الوقوع في التكرار أو التكديس، إذ أن الدراسات السابقة وإن أشارت إلى هذه المشكلة إلا أنها لم تتناولها بالبحث كموضوع مستقل، مثلما يتجلى في عناوين الدراسات التي وقعت بين أيدينا على غرار كتاب: "الغزالي بين الدين والفلسفة" لـ "عبد الحميد خطاب"، وكتاب "الحقيقة عند الغزالي" لـ سليمان دنيا وغيرهما.

إن الدراسات السابقة عن الغزالي قد تناولت إما موضوعا عاما كموضوع "الغزالي بين الدين والفلسفة" ـ الذي سبقت الإشارة إليه ـ وموضوع "الفيلسوف الغزالي" لـ"عبد الأمير الأعسم"، وإما موضوعا جزئيا (فرعيا) كموضوع "فكرة العلية عند الغزالي" لـ "علي زكي" أو "الإنسان عند الغزالي" لـ "بركات محمد مراد"، فأهملت بذلك المشكلة الجوهرية في فلسفته، ونعني بها مشكلة "المنهج النقدي"، وهي المشكلة المحورية لهذه الدراسة، والتي يمكن أن نلمسها من خلال التساؤلات التالية: كيف انتقد الغزالي الفلاسفة والمتكلمين والباطنية والمتصوفة وهو معدود منهم؟ وما هي أبعاد هذا النقد؟ وما معاييره؟ وهل يمكن اعتبار هذا الموقف مفارقة في تفكير الغزالي؟ كيف انتقد الغزالي الفلاسفة والمتكلمين في الوقت الذي يعترف بقيمة العقل ويعلي من

شأنه وهو أداتهم في المعرفة؟ وبماذا نفسر نقده للحس والإلهام في الوقت الذي يعتبر كلا منهما مصدرا لليقين؟

إن هذه التساؤلات المتفرعة عن المشكلة الأساس وهي" المنهج النقدي في فلسفة الغزالي"، لم نقرضها على فكره، ولم نسقطها عليه تعسفا، بل نحسبها هاجسا أساسيا بالنسبة له سواء عبر عنها صراحة أو ضمنيا، مثلما تشهد على ذلك مؤلفاته التي اصطلحنا عليها باسم "المؤلفات النقدية" وهي التي تشكل المصادر الأساسية لهذا البحث، وأهمها: "تهافت الفلاسفة"، "المنقذ من الضلال"،" فضائح الباطنية"، "إحياء علوم الدين"، "إلجام العوام عن الكلام"، "الإقتصاد في الإعتقاد" وغيرها .

وبالنظر إلى ما تقدم، فإن هذا البحث يرمي إلى تحقيق هدفين أساسيين: أولهما، تقديم أجوبة حول التساؤلات السابقة الذكر، فنكون بذلك قد حددنا معالم وأسس ومقومات "المنهج النقدي عند أبي حامد الغزالي"، والهدف الثاني، التأكيد على مساهمة الغزالي في إرساء دعائم المنهج النقدي في الفلسفة، فنرد بذلك على الرأي الذي يؤرخ للمنهج النقدي بالفيلسوف الألماني (إيمانويل كانط) حتى صار عنوانا لفلسفته ومرادفا لنظريته في المعرفة، وهو رأي مجحف فيما نعتقد، طالما أنه يتجاهل فلسفة الغزالي التي تشكل أحد الإرهاصات الأساسية للفلسفة النقدية، وهذا ما أشار إليه بعض الباحثين والمفكرين مما جعلنا نسعى لتحقيق هذا الهدف، بعيدا عن الأحكام الذاتية العامة والمطلقة والتي

تحركها نزعات لا تتماشى ومقتضيات البحث العلمي، ولتحقيق مقاصد هذا البحث استخدمنا المنهج التحليلي التركيبي، وذلك لتحليل النصوص التي انتقيناها سواء من مصادر الغزالي مباشرة أو من بعض الدراسات والمراجع التي لها صلة بالبحث، ثم القيام بعملية تركيب نبرزمن خلالها النتائج المستنبطة من التحليل، كما استخدمنا المنهج المقارن وذلك لمقارنة بعض آراء الغزالي بآراء بعض الفلاسفة والمفكرين الآخرين، إما إثباتا وتأكيدا لموقفه أو دحضا وتفنيدا له.

وقد ارتأينا تقسيم هذا البحث إلى مدخل وسبعة فصول وخاتمة، فالمدخل يمثل الإطار النظري للبحث، ويتمحور حول مفهوم المنهج النقدي وقيمته، حيث أبرزنا من خلاله مفهوم النقد لغة واصطلاحا وكذا معاني بعض التصورات الأخرى التي يتداخل معناها مع معنى النقد، مثل مفهوم الشك، وقد شكل ذالك موضوع المبحث الأول، وأما المبحث الثاني فأبرزنا من خلاله قيمة المنهج النقدي وأهميته من خلال أبعاده الفلسفية.

الفصل الأول: ويتعرض لمصادر التفكير النقدي عند الغزالي وأهم مؤلفاته النقدية، وقد قسمناه إلى ثلاثة مباحث أساسية: المبحث الأول، ويتناول المصادر التاريخية وتتمثل في ظروف عصره وظروف حياته، والمبحث الثاني يتناول المصادر الفكرية، وقد قسمت إلى قسمين: مصادر داخلية وهي الكتاب والسنة والتصوف وعلم الكلام والمدرسة الفقهية، ومصادر خارجية، وتتمثل في الفلسفة اليونانية. أما المبحث الثالث،

فخصص لتحليل مؤلفاته وقد أبرزنا من خلال ذالك أهم مؤلفات الغزالي النقدية، وهي مصدرنا الأساسي في التعرف على منهجه النقدي.

الفصل الثاني: ويتناول نقد الغزالي لمصادر المعرفة وقد انحصرت لدينا في ثلاثة مصادر هي: الحس والعقل والإلهام، لذالك ارتأينا تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث أساسية، المبحث الأول، ويتناول موقف الغزالي من الحس، حيث عرفنا الحس وبينا أنواعه ثم بينا قيمته وحدوده في نظر الغزالي، والمبحث الثاني، خصصناه لموقف الغزالي من العقل، إذ بينا قيمة العقل وحدوده عنده وذالك بعد أن بينا المعاني المختلفة للعقل لغة واصطلاحا، وفي المبحث الثالث، تعرضنا لموقف الغزالي من الإلهام باعتباره المصدر الأخير والأهم للمعرفة، حيث بينا قيمته وحدوده بعد أن حددنا مفهومه لغة واصطلاحا والفرق بينه وبين بعض المفاهيم المتداخلة معه كالوحي.

الفصل الثالث: ويتناول نقد الغزالي لطرق المعرفة، وقد ارتأينا تقسيمه إلى ثلاثة مباحث بحسب عدد هذه الطرق، فالأول منها، يتناول موقف الغزالي من الاستدلال بمختلف أنواعه قيسا كان أو استقراء أو تمثيلا، والمبحث الثاني، يتناول موقفه من التأويل، وفي المبحث الثالث، تطرقنا لموقف الغزالي من المناظرة والجدل.

الفصل الرابع: وخصص لنقد للمتكلمين، وقد جاءت مباحثه على النحو التالي:

المبحث الأول، ويتناول موقفه النقدي العام من المتكلمين، والمبحث الثاني، يتناول معايير مناهضته للمتكلمين، وأما المبحث الثالث، فيتناول أهم المسائل الخلافية بينه وبين المتكلمين.

الفصل الخامس: وفيه تناولنا نقد الغزالي للفلاسفة وذالك من خلال أربعة مباحث هي: المبحث الأول، ويتناول موقفه النقدي العام من الفلاسفة، والمبحث الثاني، يتناول معايير مناهضته لهم، أما المبحث الثالث، فيتناول أهم المسائل الخلافية الإلهية، وأما المبحث الرابع، فخصص لأهم المسائل الخلافية الطبيعية.

الفصل السادس: ويتناول نقد الغزالي للباطنية، وقسمناه إلى ثلاثة مباحث هي كالتالي: المبحث الأول، ويتعرض لموقفه النقدي العام من الباطنية، والمبحث الثاني يتطرق لمعايير مناهضته لهم، أما المبحث الثالث فخصص لأهم المسائل الخلافية بين الطرفين.

الفصل السابع: ويتمحور حول نقد الغزالي للمتصوفة، وقد قسمناه إلى أربعة مباحث: أولها، يتناول مفهوم التصوف وأصوله بصفة عامة وعند الغزالي بصفة خاصة، وثانيها، يتناول موقفه النقدي العام من المتصوفة، وثالثها، خصص لأساس مناهضته لهم، أما رابعها، فخصص لموقفه النقدي من بعض النظريات الصوفية التي تمثل المسائل الخلافية بين الجانبين، ونعني بها نظريتي الحلول والاتحاد.

ولم تكن عملية إنجاز هذا البحث سهلة، إذ واجهتنا بعض الصعوبات أهمها، ندرة المراجع والدراسات التي تناولت الموضوع، رغم كثرة المراجع والدراسات التي تناولت شخصية الغزالي وفلسفته، إضافة إلى بعض المميزات التي يتسم بها تفكير الغزالي، ومنها، تطور فكره وتعدد آرائه وذلك بتعدد مذاهبه واتجاهاته الأمر الذي جعل آراء الباحثين تتضارب وتتعارض بشأنه، مما شكل عقبة أمام الباحث من أجل صياغة موقف نهائي في المسائل التي تناولها، وهذا ما زادنا إصرارا ورغبة في إنجاز هذا البحث لحل هذه المعضلات من جهة، وإثراء المكتبة الإسلامية بهذا النوع من الدراسات، عسانا بذلك نوجه اهتمام الباحثين نحو دراسة المنهج النقدي لدى فلاسفة مسلمين آخرين، فنساهم بذالك في إحياء التراث الإسلامي وإبراز قيمته.

وأخيرا، لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر والتقدير إلى أستاذي المشرف الدكتور "بشير بوجنانة" ـ رحمه الله ـ الذي كانت له اليد الطولى في إنجاز هذا البحث بفضل ما خصني به من توجيهات ونصائح، وصبره علي، كما أشكر كل الزملاء الأساتذة الذين قدموا لي يد العون، ولا أنسى عمال المكتبات الجامعية على مساعداتهم، جزى الله الجميع خيرا، فهو الذي يجزي بالحسنة عشرة أمثالها. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

obeikandl.com

مدخل : مفهوم المنهج النقدي وقيمته

أولا : مفهوم المنهج النقدي

ثانيا : قيمة المنهج النقدي

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

إذا كانت الفلسفة في معناها العام هي "البحث عن الحقيقة"، فإن هذا البحث يتم وفق منهج فلسفي معين كالمنهج العقلي والمنهج التجريبي، والمنهج الظواهري والمنهج التحليلي إلى غير ذالك من المناهج الفلسفية، ولعل المنهج النقدي واحد من أهمها، ويعتبر الإمام "أبو حامد الغزالي"من الفلاسفة الذين اعتمدوا على هذا المنهج في البحث عن اليقين، ولكن قبل أن نتطرق إلى ذالك حري بنا أولا تحديد مفهوم المنهج النقدي وقيمته، وهذا ما نتناوله في هذا المبحث الذي سنقسمه إلى مطلبين، نتناول في الأول منهما مفهوم المنهج النقدي، فيما نخصص المطلب الثاني لقيمته وأهميته.

أولا: مفهوم المنهج النقدي

إن مفهوم المنهج النقدي يحتاج إلى تحديد وضبط وذالك للغموض الذي يكتنفه، والتداخل الذي يربطه مع بعض المفاهيم والتصورات الأخرى مثل، الفلسفة النقدية والمذهب النقدي والمنهج الشكي ...الخ، وهذا ما يسوغ لنا تحديد هذه المفاهيم والتمييز بينها، لكن، وبالرغم من أن مفهوم المنهج النقدي مفهوما مركبا إذ يتكون من تصورين هما المنهج والنقد، فإننا سنقتصر على تحديد مفهوم النقد لغة واصطلاحا نظرا لأن

مفهوم المنهج قد صار من المفاهيم المعروفة والمتداولة في الدراسات العربية.

١- المفهوم اللغوي

يطلق مفهوم النقد في المعاجم العربية بصفة أساسية في مجال المعاملات المالية إذ يدل على ما هو خلاف النسيئة[١]، وثمة معنى آخر أكثر أهمية بالنسبة لنا وهو الذي يشير إلى تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها[٢]، فنقد الدراهم وانتقادها وتنقدها يعني إذن، تمييز جيدها من رديئها[٣].

غير أن مفهوم النقد قد أخذ معنى أعم إذ صار يدل على امتحان شيء ما من جهة قيمته[٤]، لذلك فإنه لم يعد يقتصر على مجال المعاملات المالية وإنما تعداه إلى مجالات أخرى، كالأدب والتاريخ والفلسفة وغيرها، ولكنه مع ذلك قد حافظ على معناه العام وهو ما نجده سائدا في التعاريف الاصطلاحية.

٢- المفهوم الاصطلاحي

انتهينا في المفهوم اللغوي إلى القول بأن النقد قد أخذ معنى الاختبار والفحص والمناقشة قصد التحقق من صحة الشيء والتمييز بين ما هو صحيح

---

[١] . الزبيدي، تاج العروس، تح. عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت ،١٩٧١ ، ج٩ ،٢٣٠ .

[٢] . نفسه، الصفحة نفسها.

[٣] . نفسه، الصفحة نفسها.

[٤] . محمود حمدي زقزوق، دراسات في الفلسفة الحديثة و المعاصرة، دار الفكر العربي، مصر، ط ١٩٩٣، ص١٨٣

وما هو مزيف، وهذا المعنى هو الذي نجده سائدا في المعاجم الفلسفية إلى حد ما، وإن كانت هذه المعاجم لم تتفق على تعريف محدد، حيث نجده أحيانا يطلق في مجال الوثائق التاريخية وهنا يأتي النقد بمعنيين[١]:

. **نقد خارجي**: وهو الذي ينصب على صورة الوثائق التاريخية لتحديد مدى صحتها وأصالتها.

. **نقد داخلي**: وهو الذي ينصب على مضمون هذه الوثائق ومقابلة بعضها ببعض، وهذا النقد لم يعد يقتصر على الوثائق التاريخية وإنما صار يشمل الوثائق والنصوص بصفة عامة في شتى فروع المعرفة ومجالاتها ومن بينها الفلسفة، إذ نجد في هذا الباب ما يدعى بنقد المصادر الفلسفية، أي اختبار مدى صحة نسبة المؤلفات المنسوبة إلى فيلسوف ما واختبار ما إذا كانت قد بقيت دون تزييف أم لا.

والنقد بهذا المعنى أقرب إلى المنهج التاريخي منه إلى المنهج الفلسفي، لذلك سنتغاضى عن هذا المعنى وننتقل إلى المعاني الأخرى، حيث يأتي النقد في بعض المعاجم بمعنى، فحص "رأي أو مبدأ أو نظرية أو عمل بغية التوصل إلى حكم تقويمي، مثل: نقد الفن، ونقد الحقيقة كما جاء عند كانط"[٢]، الذي يقول في هذا الصدد:" لست أعني بالنقد نقد

---

[١] . محمود حمدي زقزوق ، مرجع سابق، ص١٨٣.

٢_ ANDER LALANDE: VOCABILAIRE DE LA PHILOSOPHIE ,PRESSE UNIVERSITAIRE DE FRANCE ,PARIS , ١٩٦٠ , P ١٩٧.

الكتب والمذاهب، بل أعني به نقد قدرة العقل بصورة عامة، بالنظر إلى المعارف التي يمكن أن يسعى إلى الحصول عليها مستقلا عن كل الخبرات، وبالتالي تقرير استحالة الميتافيزيقا بصفة عامة وتحديد منابع هذه الميتافيزيقا وإطارها وحدودها، وذلك كله من حيث المبادئ"[١].

ولا شك أن هذا المعنى أكثر اتصالا بالفلسفة فهو يشير إلى مناقشة الأفكار والآراء والنظريات والأعمال المترتبة عنها قصد الحصول علي حكم بشأنها[٢]، وهذا عمل فلسفي بحث، حيث نجد الفيلسوف في بحثه عن الحقيقة يقوم باختبار وامتحان وسائل المعرفة حسية كانت أو عقلية اختبارا من شأنه أن يبين ما إذا كانت قادرة على الوصول إلى معارف حقيقية أم لا؟ وإلى أي مدى تصل قدراتها المعرفية؟ ومدى حدود المعرفة الإنسانية بصفة عامة؟[٣]

والنقد بهذا المعنى، يأخذ مفهوما خاصا وهو الذي يطلق في مجال الإبستمولوجيا، على نحو ما نجده لدى الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط"، إنه وسيلة من وسائل تحرير الأفكار واختبار الآراء، أي أنه لا يهدف إلى تزويدنا بقناعات جديدة بقدر ما يهدف إلى مساءلتنا عن الطريقة التي كونا بها قناعتنا وهو لا يحمل إلينا حقيقة مغايرة، بل يسعى إلى جعلنا نفكر بطريقة مغايرة، وهو بهذا يفتح حقلا جديدا للتفلسف ليس

---

[١] كانط ، نقد العقل المجرد، ترجمة، أحمد الشيباني، دار اليقظة العربية، بيروت، ١٩٦٥، ص٧.

[٢] محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص١٨٣

[٣] إبراهيم بيومي مدكور، يوسف كرم، دروس في تاريخ الفلسفة، مطابع مدكور وأولاده، مصر، د.ط، ١٩٥٤، ص٢٠٥.

هو حقل الكون ولا حقل المعرفة، بل حقل ما يمكن أن يسمى" شروط الإمكان"[١] أي، كيف تكون المعرفة ممكنة؟ وهذا يجعل النقد مرادفا لنظرية المعرفة، كما يؤكد ذلك" زكريا إبراهيم"، إذ يقول: "إنه لا بد لنا من امتحان أداتنا في المعرفة قبل الوثوق بها أو الاعتماد عليها، ومن هنا فقد دأب مؤرخو الفلسفة على اعتبار المسألة النقدية مرادفة لنظرية المعرفة"[٢].

وهذا المعنى من بين المعاني السابقة للنقد هو الذي يهمنا في هذا البحث، فنحن عندما نتكلم عن المنهج النقدي فإنما نقصد النقد بهذا المعنى الأخير دون سائر المعاني السابقة اللغوية منها والاصطلاحية، ولتوضيح هذا المعنى وإجلائه أكثر سنقوم بتحديد بعض المفاهيم الأخرى التي لها صلة بالمنهج النقدي سواء من حيث المعنى أو من حيث الاستعمال، كالمذهب النقدي(criticisme) ومذهب الشك (scepticisme) .

إذا كان النقد، مثلما ذكرنا، لا يشير إلى مذهب بعينه بل هو وسيلة للبحث والتفكير، فإن هذا المعنى يبدو للوهلة الأولى مرادفا في المعاجم الفلسفية للنقدانية أو النقدية أو الفلسفة النقدية، وهذه المرادفات تطلق على مذهب " كانط" وعلى نظريته في المعرفة بالخصوص[٣]، كما تطلق على كل مذهب فلسفي يعتبر الذهن البشري حاصلا في الأصل على

---

[١] . معن زيادة، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، ط١، ١٩٨٦، ص١٣٦٩.

[٢] . زكريا إبراهيم، كانط أو الفلسفة النقدية، مكتبة مصر، د.ط، د.ت، ص٦٢.

[٣] . جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١. ١٩٧١، ص١٥١.

شروط المعرفة في حدود الاختبار الحسي، وأن هذه الشروط لا قيمة لها خارج حدود الاختبار[١].

والمتمعن في هذا التعريف يلاحظ التقارب والتداخل الكبير بين معنى النقد والمذهب النقدي طالما أن هذا الأخير لا يزيد على كونه نظرية أو مذهب يتخذ من النقد وسيلة ومنهجا لاختبار المعارف من خلال اختبار أدواتها وخاصة الحواس والعقل، غير أن ذالك لا ينفي الاختلاف بينهما طالما أن النقد له فائدة نظرية سلبية فقط، إذ هو يصلح لتوضيح العقل وصونه من الأخطاء، لا لتوسيع معارفه، وبذلك يصبح النقد ليس مذهبا وإنما يعني البحث فيما إذا كان المذهب ممكنا وكيف يكون ممكنا، أي أنه طريقة في التفلسف[٢].

وبعد أن حددنا دائرة التقاطع بين مفهوم النقد ومفهوم الفلسفة النقدية بقي أن نعرف بالمثل، الفرق بين المنهج النقدي والشك.

إن مفهوم الشك ليس من التصورات الغريبة عن اللغة العربية، إذ يأتي عادة بمعنى عدم اليقين وبمعنى التردد وعدم ترجيح رأي أو بالأحرى تعليق الحكم فيه[٣]، وهذا المعنى لا يختلف كثيرا عن المعنى الاصطلاحي

---

[١] ANDER LALANDE, op. cit, p ١٩٦.

[٢] – الموسوعة الفلسفية العربية، ص ١٣٦٧ و ما بعدها.

[٣] - أنظر مثلا: عبد القادر الرازي ، مختار الصحاح ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان، ١٩٨١ ، ص٣٤٤

الذي نجده في المعاجم الفلسفية[١]، وهو الذي يدل على "حالة تردد ذهني، تجعل الإنسان يطرح أسئلة على ذاته ولا يتمكن من الإجابة"[٢]. وهذا يعني أن الشك يعبر عن عجز الإنسان عن المعرفة مما يفضي به إلى اتخاذ موقف لا أدري يتمثل في إنكار المعرفة إنكارا جزئيا أو كليا، وينتج عن هذا، وجود نوعين من الشك ـ وقد عرف تاريخ الفلسفة كلا من هما ـ أما الأول، فهو الشك المذهبي أو الشك المطلق، ويطلق هذا المعنى على المذهب الفلسفي الذي "ينكر على العقل قدرته على المعرفة اليقينية في جميع الحالات وفي كافة المجالات"[٣]، مما يعني استحالة إدراك الحقيقة، لأن المعرفة تصبح في هذه الحالة تابعة للحواس، ولما كانت الحواس، متغيرة بتغير الأفراد، وهي عرضة للخطأ فإن ذالك يعني أن "الإنسان هو مقياس كل الحقيقة فتصبح المعرفة بذالك نسبية وهذا هو مذهب السفسطائيين"[٤] ، وهذا النوع من الشك يبدو سلبيا من حيث أنه ينفي وجود الحقيقة المطلقة، وإن اعترف بوجودها فهو ينكر على الإنسان قدرته على معرفتها ويثبط عزيمته وجهده الفلسفي في البحث عنها، لذلك يختلف هذا الشك عن الشك المنهجي، وهو الذي لا ينكر الحقيقة المطلقة، ولا ينكر قدرة الإنسان على معرفتها، وإنما هو عملية "أساسية

---

[١] – تدل كلمة شك في اللغة اليونانية على البحث والتنقيب أو الاختيار أو الاستطلاع ، والشاك بناء على ذالك هو الذي لا يزال يبحث عن الحقيقة، محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٥٢ .

[٢] – ANDRE LALANDE , op. cit, p ٢٤٩.

[٣]– ibid, P ٢٤٩.

[٤] ـ أفلاطون، محاورات ونصوص (فايدروس ـ تياتيتوس)، تر. أميرة حلمي مطر، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٦، ص ٢٣٩

للمنهج الفلسفي"[١]، فهذا الشك، إذن، ليس سلبيا وإنما يعد إيجابيا وبناء، إذ هو وسيلة أو منطلق لبناء المعرفة وامتلاك الحقيقة، وقد اشتهر "ديكارت" في الفلسفة الحديثة بهذا الشك، حيث يقول في هذا الصدد: "علي أن أنبذ كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقل شك، على أنه باطل على الإطلاق، وذلك لأرى إن كان لا يبقى في اعتقادي بعد ذلك شيء لا يحتمل الشك"[٢]، فالشك المنهجي بهذا المعنى ليس إلا خطوة في سبيل امتلاك الحقيقة، وهذا ما عبر عنه الغزالي في قوله: "من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والظلال"[٣].

ويتضح لنا من مفهوم الشك مدى التداخل والتقاطع بين المنهج النقدي والشك المنهجي، باعتبار أن كلا منهما منهج فلسفي ووسيلة للبحث عن الحقيقة، وكل منهما يهدف إلى فحص ومناقشة أفكارنا ومعارفنا ومعتقداتنا التي كوناها عن طريق الحواس والعقل والتقليد والإيمان الساذج إلى غير ذالك من الوسائل التي يثق فيها الدوغماطيقيون (الوثوقيون) ولكنها تتزلزل عند التحليل النقدي، والشك المنهجي بذلك، شأنه شأن المنهج النقدي، يعد وسيلة لتحرير الفكر والثورة على التقليد.

---

[١]– LALANDE , op. cit, P ٢٤٩

[٢]– ديكارت، مقال عن المنهج لأحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم، تر. محمود محمد الخضيري، مراجعة وتقديم، محمد مصطفى حلمي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣، ١٩٨٥ ، ص ٢١٣ .

[٣] – الغزالي ، ميزان العمل الصالح ، تح ، سليمان دنيا، دار المعارف مصر ، ط١ ، ١٩٨٤ ، ص٤٠٩

وبانتهائنا إلى هذه النتيجة، من خلال ضبط المفهوم، نكون قد انتهينا إلى الحديث عن أهمية المنهج النقدي، وسيكون ذلك موضوع المطلب الموالي من هذا المبحث، ففيم تتمثل قيمة المنهج النقدي يا ترى؟.

ثانيا : قيمة المنهج النقدي

بعد أن حددنا مفهوم المنهج النقدي، حري بنا أن نتناول أبعاده بهدف إبراز أهميته وقيمته، والداعي إلى ذالك بيان أن هذا المنهج ليس أداة هدم وتحطيم للمعارف كما قد يتبادر إلى الأذهان، وإنما هو منهج فلسفي إيجابي على غرار المناهج الفلسفية الأخرى، كما نأمل من خلال ذلك تعميق مفهوم المنهج النقدي وإثرائه وبيان مساهمة الغزالي في تأصيل هذا المنهج ، ويكون ذلك تمهيدا للحديث عن أسس المنهج النقدي عند الغزالي.

إذا كان لا يوجد هناك اتفاق بين الباحثين والمفكرين حول تعريف محدد للفلسفة، فإن هؤلاء يكادوا يجمعون على أن النقد خاصية أساسية من خصائص الفكر الفلسفي[1]، بل إن الخصائص الأخرى لهذا التفكير تكاد تكون من آثار هذا النقد ومن نتائجه، ونقصد بذلك خصائص الاستيعاب والاستقلالية والاجتهاد والإبداع، حيث أن الفيلسوف في تفلسفه يقوم بممارسة العمل النقدي، ولكنه قبل ذلك يقوم باستيعاب ما يريد نقده، وبعد الاستيعاب والنقد عليه أن يتحلى بالاستقلال الفلسفي،

[1] إمام عبد الفتاح إمام، مدخل إلى الفلسفة، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط ، ١٩٧٦ ، ص ٨٥.

أي التخلص من كل تبعية مذهبية فلسفية فيكون ذا تفكير أصيل، فتجيء بذلك آراؤه من صميم إبداعه واجتهاده لا تقليدا للآخرين، ويكاد يكون هذا ميزة كل الفلاسفة الحقيقيين، وهذا يعني أن التمسك بالمنهج النقدي هو تمسك بخصائص الفكر الفلسفي، وفي هذا الصدد يقول عاطف العراقي: "لا يخفى علينا أن المفكر إذا أراد أن يقدم لنا فكرا فلسفيا، فإن هذا الفكر الفلسفي لا بد أن يقوم على أساس النقد لا مجرد المتابعة لآراء الآخرين، إن المفكر لو كان متابعا لآراء الآخرين مقلدا لهم، فإنه لا يستحق أن يسمى بالفيلسوف[...] ومن هنا نجد النقد معبرا عن الحركة لا السكون معبرا عن التجديد لا التقليد، معبرا عن الثورة لا الجمود"[1] .

إن الفيلسوف، بهذا المعنى، أي، بإتباعه للمنهج النقدي في تفكيره، يعد صاحب ثورة فكرية، ولكنها ليست ثورة على ما هو حقيقي وإيجابي بالنسبة للفرد والمجتمع، وإنما هي ثورة على الأوهام والأغاليط والمعتقدات الزائفة والخاطئة، وهذا يعني أن النقد ليس منهجا للهدم والفوضى دائما بقدر ما هو منهج للتصحيح والتقويم والبناء أيضا، ومن هنا تأتي أهميته، "فالنقد والهدم لا بد منه قبل الشروع في البناء، ولا بد من إزالة الأنقاض القديمة التي تتخلف عن الهدم، إن تداعت المذاهب والأفكار القديمة لمعاول النقد، فنحن بالشك لا ننقض الحق في ذاته، وإن كنا ننقد ما يعتقد الناس أنه الحق، أعني أننا ننقد أفكارنا نقدا يميز صحيحها من باطلها، ولعل أهم طابع يميز التفكير الفلسفي، هو أن تشك

---

[1] - عاطف العراقي: المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد ، دار المعارف ، مصر ، ط ١ ، ١٩٨٠ ، ص ١٨

حتى يدفعك الشك إلى آخر مداه، وإذا بهذا الشك نفسه يلد لك اليقين المنشود"[١]، ولعل هذه الأهمية التي يكتسيها النقد في الفكر الفلسفي، هي التي جعلت بعض مؤرخي الفلسفة يعتبرون "المدرسة السفسطائية" تبشيرا بعصر تنوير في الفكر الإنساني، وليست حركة هدم وفوضى كما كان ينظر إليها[٢]، فصارت بذلك تحتل مكانة كبرى في الفكر الفلسفي شأنها في ذلك شأن كل الفلاسفة الذين يتميزون بالحس النقدي والشكي في تاريخ الفلسفة قديما ووسيطا وحديثا، وهذا ما يؤكده "عاطف العراقي" حيث يقول:"احتل تلك المكانة السفسطائيون لحسهم النقدي الشكي واحتلها أرسطو بنقده لأكثر الآراء والاتجاهات التي سبقته ابتداء من آراء فلاسفة المدرسة الأيونية حتى آراء أستاذه أفلاطون واحتلها "كانت" حتى أن فلسفته تشطر الفلسفة الحديثة شطرين، الفلسفة قبل كانت والفلسفة بعد كانت، واحتلها المعتزلة بموقفهم النقدي رغم أن هذا الموقف من جانبهم كان محصورا في دائرة أضيق نطاقا من الدائرة الفلسفية، أي دائرة التأويل، كما احتلها الفيلسوف العربي ابن رشد، إذ أنه نقد أكثر الاتجاهات التي سبقته كالاتجاهات الكلامية والصوفية واتجاهات فلاسفة سبقوه كالفارابي وابن سينا. ومن هنا نجد أن ابن رشد يقف على قمة الفلسفة العربية، وبعده لا نجد أي فيلسوف عربي حتى أيامنا المعاصرة"[٣]، ونحن إذ نقلنا هذا النص ـ على الرغم من طوله ـ فإنما

---

[١] – زكي نجيب محمود، حياة الفكر في العالم الجديد. نقلا عن: بركات مراد، الإنسان عند الغزالي، رسالة ماجستير، قسم الفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم، القاهرة، ١٩٨١ (مخطوطة).

[٢] – علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج١، دار المعارف، مصر، ط٨ ، د.ت، ص١٦٣.

[٣] عاطف العراقي، مرجع سابق، ص١٨ .

غرضنا من ذالك أن نبرز من خلاله، أولا: الجانب التاريخي للمذهب النقدي في الفلسفة، إذ يتضح لنا أن هذا المنهج يعد ميزة الفلسفة، يونانية كانت أم إسلامية أم حديثة، وهذا ما يؤكد أهميته، وثانيا: بعض مظاهر المنهج النقدي وذلك من خلال النماذج المذكورة والمتمثلة في السفسطائية، أرسطو، المعتزلة، ابن رشد، وكانط، وهذا ما يزيد في تعميق مفهومنا للمنهج النقدي وطبيعته وأبعاده، وثالثا: تفنيد زعمين باطلين في نظرنا، أما الأول، فهو الذي يعتبر كانط رائدا للفلسفة النقدية، حتى أن هذه الفلسفة قد صارت تنسب إليه، والزعم الثاني، يتمثل فيما ذهب إليه "عاطف العراقي"، في هذا النص من مزاعم حيث نجده يتجاهل متعمدا ذكر"أبي حامد الغزالي" من جملة الفلاسفة الكبار الذين تميزوا بحسهم النقدي والشكي، فإذا دافع عن نفسه بقوله: "ولا يعني هذا القول، أن هؤلاء الفلاسفة دون غيرهم هم الذين يتميزون بإتباع المنهج النقدي إذ أن ما ذكرناه مجرد أمثلة على بروز الحس النقدي عند فلاسفة يحتلون مكانة كبرى في تاريخ الفكر الفلسفي، لأن التفكير النقدي يعد في الواقع قديما قدم الفلسفة، بمعنى أننا إذا تساءلنا عن خصائص الفكر الفلسفي وما هي الشروط التي يجب أن تتوافر في الفكر حتى يكون فكرا فلسفيا، وحتى يكون صاحب هذا الفكر فيلسوفا، فلا بد أن نضع في الاعتبار أن من الشروط والخصائص الهامة للفكر الفلسفي، خاصية النقد، ومن هنا يكون للتفكير النقدي دلالته الفلسفية"[1]. فإننا نرد على ذالك بقولنا، هذا صحيح، ولكن، بأي مقياس اختيرت هذه النماذج؟ لماذا يذكر المعتزلة

[1] . المرجع نفسه، ص ١٩ .

مثلا ولا يذكر الغزالي، مع أن المنهج النقدي عند الغزالي أكثر وضوحا ونضجا منه عند المعتزلة؟

ثم إن المنهج النقدي عند ابن رشد، كما يفهمه عاطف العراقي ـ وهو الذي اعتبره بسببه قمة الفلسفة العربية ـ والذي يتجلى في نقده للاتجاهات التي سبقته من متكلمين ومتصوفة وفلاسفة، دفعا منه عن العقل وعن البرهان، هذا المنهج نجده واضحا في فلسفة الغزالي، الذي سبق ابن رشد إلى كل ذالك، بل إننا لا نستبعد تأثر ابن رشد في ذلك بالغزالي رغم كونه أكبر ناقد له، والرد الأخير هو قولنا: هل من الموضوعية العلمية القول بأنه لا يوجد فيلسوف عربي بعد ابن رشد استنادا إلى المقياس ذاته الذي وضعه عاطف العراقي، وهو التمسك بالمنهج النقدي الذي دافع من خلاله عن العقل وعن البرهان؟! .

والجواب على ذالك يكون بالنفي، إذ أننا نجد الكثير من الفلاسفة الذين تميزوا بحس نقدي، من هذا القبيل ولعل ابن خلدون يعد مثالا واحدا من أمثلة كثيرة في مختلف مراحل الفكر الإسلامي، يتغاضى عنها عاطف العراقي تحت تأثير النزعة الرشدية التي استولت عليه[1]. ثم إن النقد ليس مقوما كافيا ووحيدا للتفكير الفلسفي، بمعنى أنه لا يكفي أن يكون التفكير نقديا لنقول بأنه تفكير فلسفي، فإذا كان كل تفكير فلسفي

[1]- دافع هذا الباحث كثيرا عن فلسفة ابن رشد من خلال سلسلة تجديد العقل التي ألفها ، وتضم هذه السلسلة مجموعة مؤلفات مثل :النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد ، المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد ، ثورة العقل في الفلسفة العربية، تجديد في المذاهب الفلسفية والكلامية ، مذاهب فلاسفة المشرق،... وقد اشتملت هذه المؤلفات على مجموعة من الآراء التي نراها بعيدة عن الموضوعية.

هو تفكير نقدي فإن العكس ليس صحيحا أي أنه ليس كل تفكير نقدي يعد تفكيرا فلسفيا، وإلا أطلقنا على بعض الاتجاهات النقدية في الأدب والفن والسياسة وغيرها اسم الاتجاهات الفلسفية وهي منها براء، ولعل هذا ما دفعنا إلى تحديد طبيعة النقد الذي نعنيه هنا وموضوعه وتجلياته، وأبعاده تمييزا له عن أنواع النقد الأخرى.

لقد دأب مؤرخو الفلاسفة على تقسيم الفلسفة إلى مباحث أساسية هي: مبحث الوجود، مبحث المعرفة ومبحث القيم، إلا أنهم مع ذلك يعتبرون مبحث المعرفة وهو ما يصطلح عليه بالابستمولوجيا[1](*) أساس المباحث الأخرى، باعتبار أن النظريات الفلسفية الأخرى تبني على أساس نظرية المعرفة، أي أن النسق الفلسفي لفيلسوف ما يتحدد على ضوء نظريته في المعرفة[2]، ونقصد بنظرية المعرفة هنا، مصدر المعرفة وطبيعتها وقيمتها[3]، فكأن مشكلة الفلسفة تؤول في النهاية إلى مشكلة المعرفة التي تؤول بدورها إلى مشكلة العقل(**)، وهذا يعني أن حل

---

[1] - رابوبرت، مبادئ الفلسفة، تر. أحمد أمين، دار الكتاب العربي، لبنان، ط١، ١٩٧٩، ص ص ١٩٠ - ١٩١.

* - يطلق مصطلح الإبستمولوجيا بمعنيين مختلفين: أحدهما عام، ويطلق على نظرية المعرفة، وهذا المعني هو الشائع لدى الفلاسفة الألمان والأنجلوسكسون. والمعني الثاني خاص، إذ يطلق على نقد المعرفة العلمية من حيث مبادئها وفروضها ونتائجها، وقد شاع هذا المعني لدى فلاسفة العلم الفرنسيين المعاصرين. أنظر: جميل صليبا، ص ٣٣. وكذلك: محمد وقيدي ما هي الإبستمولوجيا؟ ، مكتبة المعارف، الرباط ، ط٢، ١٩٨٧ ، ص٨ وما بعدها

[2] - يوسف كرم، العقل والوجود، دار المعارف، مصر، (د ط)، ١٩٥٦، ص ٦٨.

[3] - رابوبرت، ص ص، ١٩٠- ١٩١.

** - يرى يوسف كرم أن مشكلة المعرفة تنحل في النهاية إلى مشكلة العقل وباعتبار أن العقل أساس المعرفة وهذا يعني أن مشكلة الفلسفة هي في النهاية مشكلة العقل. يوسف كرم، العقل والوجود، مرجع سابق، ص ٧٤. ونحن نقول أن هذا كان صحيحا لما كان العقل هو المصدر الأساسي في المعرفة، أما وقد ظهرت مصادر أخرى مثل الإلهام والوحي (النقل)، فإن مشكلة الفلسفة لم تعد مشكلة العقل فحسب.

المشكلات الفلسفية المختلفة يتحدد على إثر حل مشكلات المعرفة، لذالك نجد أن أغلب المذاهب الفلسفة منذ القديم قد اهتمت اهتماما كبيرا بحل مشكلة المعرفة، بل إن بعضها قد كرست فلسفتها لذلك[١]، غير أن ما يميز هذه المذاهب هو أنها قد اتخذت من المنهج النقدي وسيلة لبناء نظرياتها في المعرفة، فإذا كان الفيلسوف عقليا مثاليا، فإنه يبدأ في الغالب بنقد موقف الحسيين والواقعيين، وإذا كان فيلسوفا حسيا واقعيا، فإنه بالمثل يتخذ من المذهب المثالي العقلي منطلقا له، وكل منهما يتخذ من هذه الانتقادات حجة لإثبات آرائه الإيجابية، فمثلا: يتخذ العقليون من نقد الحواس حجة على دور العقل في المعرفة، ويتخذ الحسيون من نقائض العقل، حجة على قيمة الحواس، وأما بالنسبة للشكاك فقد اتخذوا من نقد الحواس والعقل معا حجة على نسبية المعرفة أو استحالتها[٢]، ففي الفلسفة اليونانية نجد السفسطائيين قد نقدوا المذاهب السابقة ليثبتوا استحالة المعرفة[٣]، ونقد أفلاطون من جهته مذهب السفسطائيين ليثبت من ثمة دور العقل في المعرفة، وبعده جاء أرسطو، الذي رد بدوره على أفلاطون ليمهد بذلك لمذهبه في المعرفة[٤]، ومن بعد ذلك نجد

---

١ – من هؤلاء مثلا : الشكاك قديما وكانط حديثا الذي تعد فلسفته النقدية مرادفة لنظرية المعرفة، أنظر: زكريا إبراهيم، مرجع سابق، ص ٧٧.

٢ – أنظر : جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج ١، ص ٢٢١. وكذلك: يوسف كرم، العقل الوجود، دار المعارف، (د. ط)، ١٩٥٦، ص ص (٥٤.٥٥)

٣ – وولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد. دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، ١٩٨٤، ص ١٠١ وما بعدها. وكذلك: عبد الرحمان بيصار، الفلسفة اليونانية : مقدمات ومذاهب، المكتبة العصرية، بيروت، ط، ١٩٨١ص ٥٩ وما بعدها .

٤ ــ وولستر ستيس، مرجع سابق، ص٢١٨ وما بعدها، وكذلك: عبد الرحمن بيصار، مرجع سابق، ص١٠١ وما بعدها .

الشكاك قد نقدوا الحواس والعقل معا ليؤسسوا بذلك مذهبهم الشكي في المعرفة، وهكذا توالت المذاهب المعرفية التي تأسست في معظمها على النقد، حتى إذا جئنا إلى العصر الحديث نجد هذه الظاهرة تتكرر من جديد، حيث رد العقليون بزعامة "ديكارت"على الحسيين والتجريبيين، مؤكدين بذلك دور العقل في المعرفة، وبالمثل فقد انتقد الحسيون والتجريبيون بزعامة "جون لوك" و"دفيد هيوم" العقليين ليثبتوا بذلك دور الحواس والتجربة في المعرفة وبقي الصراع قائما دون أن يحسم لصالح تيار دون آخر، وكان جوهر الخلاف هنا يدور حول طبيعة المعرفة ومصدرها، فلما جاء كانط في القرن الثامن عشر اتخذت نظرية المعرفة معه مجرى آخر، بحيث لم يعد السؤال الأساسي يدور حول مصدر المعرفة وإنما يدور حول إمكانها: كيف تكون المعرفة ممكنة؟ وقد شكل هذا السؤال محور الفلسفة النقدية الكانطية[1]، ومن هنا أخذ كانط يناقش التجريبيين والعقليين ونقد المذهبين معا، وقام بامتحان قدرة العقل، باعتباره منهج البحث في الميتافيزيقا، وقد انتهى به هذا العمل الإبستمولوجي الهام إلى وضع نظرية جديدة في المعرفة، أساسها تقسيم العالم(موضوع المعرفة) إلى قسمين: عالم الأشياء في ظاهرها(PHENOMENE) وهو قابل للمعرفة ويشكل ذلك موضوع الطبيعيات، وعالم الأشياء في ذاتها(NOUMENE) وهو غير قابل للمعرفة وهذا هو موضوع الميتافيزيقا، وهذا يعني استحالة قيام ميتافيزيقا علمية،

---

[1] - عمر مهيبل، على هامش ترجمة كتابا كانط: أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ومقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص١٧ .

وبالتالي، فالحل يكمن في التسليم بموضوعاتها كما جاء بذلك الدين، كتسليمنا بوجود الله وبالحرية وبخلود النفس، دون محاولة البرهنة عليها لأن كل دليل عقلي لإثبات قضية من هذه القضايا لا يخلو من التناقض، لذلك أعاب كانط على الميتافيزيقا التقليدية ممثلة في مذاهب التجريبيين والعقليين اعتمادها على العقل دون امتحان قدرته على المعرفة، مما أدى به إلى امتحان العقل واختبار قدرته على المعرفة، وانتهى من ذالك إلى تحديد العقل، أي أنه جعل للعقل حدودا لا يمكنه تخطيها، فدور العقل المعرفي ينحصر في نطاق الطبيعيات، فإذا تجاوز ذلك إلى ما وراء الطبيعة اضطرب وتناقض، وهذا لا يعني عدم اعترافه بهذا العالم كما فعل بعض الفلاسفة الوضعيين بقدر ما يعني افتقارنا إلى وسائل معرفته، ولا شك أن هذا العمل الإبستمولوجي، الذي قام به كانط والمتمثل في امتحان أدوات المعرفة هو الذي رفعه إلى مصاف الفلاسفة الكبار وجعل فلسفته تشطر الفلسفة الحديثة شطرين، وجعل ثورته أشبه ما تكون بثورة "كوبرنيك" في علم الفلك.

غير أن السؤال المطروح هو: هل هذا يكفي للقول بأن كانط هو رائد الفلسفة النقدية(*)؟ بمعنى، أنه أول من اهتم بالمنهج النقدي؟ أو ليست

* وهذا ما يراه بعض الباحثين وعلى رأسهم: زكريا إبراهيم في كتابه. كانط و الفلسفة النقدية ، مرجع سابق، ص ٢٩

هناك محاولات قبله في هذا المجال بحيث يمكن عدها، على الأقل، بمثابة إرهاصات لفلسفته النقدية؟[1].

في الواقع لقد سبقت الإجابة على هذا السؤال فيما مضى، حيث بينا أن المنهج النقدي قديم قدم الفلسفة، و"كانط" نفسه يعترف بأن "دفيد هيوم" قد "أيقظه من سباته"[**]، وهذه العبارات تنم عما تمثله فلسفة "ديفيد هيوم" من إرهاصات بالنسبة لفلسفة كانط النقدية، وفي الفلسفة الإسلامية محاولة جادة لاختبار العقل وقدرته على المعرفة، تلك هي محاولة "الغزالي" الذي سبق "كانط" و"هيوم" من قبله إلى وضع حدود للعقل وإلى نقد الميتافيزيقا التقليدية ممثلة في مذاهب المشائين والمتكلمين والباطنية والمتصوفة، وإن كانت بينهما اختلافات واضحة يقتضيها اختلاف زمن كل منهما وظروفه، وإن كنا لا ندعي تأثر الثاني بالأول تأثرا مباشرا، وقد تنبه بعض الباحثين إلى أسبقية "الغزالي" لـ "كانط" في انتهاج منهج نقدي في فلسفته، ومن هؤلاء "حمدي زقزوق" الذي يقول في ذلك:" ولكن "كانط" لم يكن أول فيلسوف ابتكر النقد، فتاريخ الفكر الفلسفي يعرف الكثيرين من الرواد في هذا المجال، ونود هنا الإشارة إلى فلسفة الغزالي التي تعد صورة واضحة للفلسفة النقدية في تاريخ الفكر

---

[1] يجيب كلا من إبراهيم مذكور ويوسف كرم عن هذا السؤال بالقول: "لم يبتكر 'كانط ' النقد ولم يخلقه من عدم وإنما سبقه إليه مفكرون كثيرون من فلاسفة ومؤرخين وأدباء وفنانين [...] بيد أن الجديد لديه أنه تعمق فيه " دروس في تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص ٢٠٥

** - لقد تناول الأستاذ محمد عثمان الخشت أهمية هيوم بالنسبة إلى كانط في مجال الفلسفة النقدية وأوضح بإسهاب وبأدلة علمية معنى قول كانط أن هيوم "أيقظه من سباته"، أنظر : محمد عثمان الخشت ، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة، [د.ط]، [د.ت]، ص٤٨ وما بعدها.

الفلسفي بصفة عامة وتاريخ الفكر الإسلامي الفلسفي بصفة خاصة"[١].
ولو كان هذا الرأي يقتصر على باحث واحد، ربما كان"عاطف العراقي" في اعتراضه، على صواب إذ يقول:" إننا نجد فريقا من الباحثين كل همهم هو الجري وراء عقد مقارنات بين فيلسوف قديم وفيلسوف محدث دون أن يعتمد أكثر هؤلاء الباحثين على أسس دقيقة للمقارنة، إنهم إذا وجدوا كلمة أو فكرة عند فيلسوف (أ) وفيلسوف آخر جاء بعده (ب) سارعوا إلى القول بأن (ب) أخذ من (أ) وأن الفكرة هي الفكرة وبأن (ب)أخذ على (أ) وهكذا، مثلا عندما نجد الشك عند كل من الغزالي وديكارت، ونجد فكرة "العادة" عند الغزالي ونجد"النقد" عند الغزالي وكانط[*]، يسارع هذا الفريق من الباحثين أو أشباه الدارسين للفلسفة، إلى عقد مقارنات عديدة لا أساس لها من التفكير الفلسفي السليم[...] إنهم يدرسون الغزالي، هذا صحيح، ولكنني أقطع بعدم فهمهم ودراستهم لديكارت وهيوم وكانط كما ينبغي"[٢].

إن هذا الاعتراض يفقد واجهته في نظرنا ويتهافت عندما ننظر في أسماء أولئك الذين قاموا بمثل هذه المقارنات وانتهوا إلى ما انتهوا إليه من نتائج، ففضلا عن الدكتور "محمود حمدي زقزوق" المعروف

---

[١] – محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص ١٨٤

[*] نجدر الإشارة هنا إلى أن الغزالي قد سبق كانط إلى نقد أدلة العقل، مثل دليل الوجود والنظام والعناية، أنظر في ذلك: كانط، نقد العقل المجرد، ص ١٠٢ ، والغزالي ضمن الفصول القادمة من هذا البحث.

[٢] – عاطف العراقي، ثورة العقل في الفلسفة العربية، دار المعارف، مصر، ط٥ ، ١٩٨٤، ص١٧ .

بدراساته عن الفلسفة الحديثة[**]، نجد "أوبرمان" (OBERMANN) قد فطن في كتابه الكبير عن "النزعة الذاتية الفلسفية والدينية لدى الغزالي" إلى هذه الحقيقة التي يتجاهلها الكثيرون، ووصف الغزالي بأنه الفيلسوف النقدي في الفلسفة الإسلامية أو أنه كانط الفلسفة العربية الإسلامية[١]، ولا شك أن هذه الشهادة لها قيمتها من حيث أنها جاءت من باحث ومفكر على دراية كبيرة بالفلسفة الغربية، ومن أبرز المفكرين المسلمين الذين أدلوا بشهادتهم في هذا الصدد" الشيخ محمد إقبال" الذي ألمح إلى وجود هذه العلاقة، إذ يقول: "على أنه لا سبيل إلى إنكار أن الدعوة التي نهض بها الغزالي تكاد تكون دعوة للتبشير بمبدأ جديد، مثلها في ذلك مثل الدعوة التي قام بها كانط في ألمانيا في القرن الثامن عشر"[٢].

وإذا كانت دراسة هذه الآراء والشهادات ذات أهمية وقيمة كبيرة نظرا لقيمة أصحابها في دراسة الفكر الفلسفي ومعرفته[٣]، فإننا من جهتنا

**– من الذين أشاروا إلى العلاقة بين كانط وهيوم في مسألة السببية والعادة، أرنست رينان، وهو فيلسوف له وزنه في تاريخ الفلسفة، ودرس الأستاذ حمدي زقزوق مسألة الشك بين الغزالي و ديكارت في بحث قيم بعنوان "المنهج الفلسفي بين الغزالي و ديكارت "، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط١، ١٩٧٣، ص ٥٥، وما بعدها.

١– محمود حمدي زقزوق، دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، مرجع سابق، ص ١٨٤ .

٢ - محمد إقبال ، تجديد التفكير الديني في الإسلام، تر. عباس محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر،ط٢ ، ١٩٦٨، ص ص(١٠-١١).

٣ – كتب الدكتور محمد عزيز الحبابي دراسة جيدة عن أثر الغزالي في الفكر الأوربي ، نقتطف منها قوله: "اتجاه الغزالي اتجاه تأملي نقدي ينكب على – ضد– الأطروحات أكثر منه على الأطروحات، إنه يشبه إلى حد ما بالنقد الكانطي الذي هو موقف ومنهج: إن قراءة مقارنة متمعنة لتهافت الفلاسفة ولنقد العقل المحض تفاجئ بمطابقات متنوعة وعديدة، أنظر : ندوة أبي حامد الغزالي ، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٨٨، ص ٢٣٦ .

سنحاول في الفصول اللاحقة التأكيد على دور الغزالي وإسهامه الكبير في تأسيس الفلسفة النقدية وتأصيلها، ولكن قبل أن نبين مقومات المنهج النقدي عند الغزالي وأسسه، من الحري بنا أن نبدأ بدراسة مصادر هذا التفكير وخلفياته وذلك حتى لا نقول بأن الغزالي هو رائد الفلسفة النقدية فنقع بذلك في نفس الخطأ الذي وقع فيه أولئك الذين نسبوا زعامة هذه الفلسفة إلى كانط، فما هي يا ترى أهم روافد التفكير النقدي عند الغزالي؟ هذا ما نريد الإجابة عنه من خلال الفصول الموالية من هذا البحث.

obeikandl.com